كتاب الروضتين
في
أخبار الدولتين
النورية والصلاحية

تأليف

شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي
المعروف بأبي شامة
(٥٩٩ - ٦٦٥ هـ)

حققه وعلق عليه

إبراهيم الزيبق

الجزء الثالث

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الروضتين

في

أخبار الدولتين

النورية و الصلاحية

٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة الرسالة
للطباعة والنشر والتوزيع
وطى المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
بناء المسكن
تلفاكس: (٩٦١١)
٨١٤١١٢ ـ ٣١٩٠٣٩ ـ ٦٠٣٢٤٣
ص.ب: ١١٧٤٦٠
برقياً: بيوشران
بيروت ـ لبنان

Al-Resalah
PUBLISHERS
BEIRUT
LEBANON
Telefax: (9611)
815112 - 319039 - 603243
P.O. Box: 117460
E-mail:
Resalah@cyberia.net.lb
Web Location:
Http://www.resalah.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

حقوق الطبع محفوظة ©١٩٩٧م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكّن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو الجزء الثاني من كتاب الروضتين حسب تجزئة مؤلفه أبي شامة ــ وهو يضم الجزء الثالث والرابع حسب تجزئتنا[1] ــ قد اعتمدنا في تحقيقه على النسخ الخطية التالية:

١ ــ نسخة بودليان بأكسفورد، ورقمها Marsh 383:

وهي نسخة نفيسة متقنة، تقع في (٢٧٤) ورقة، وهي من أقدم نسخ الكتاب، كتبت سنة (٦٧٨ هـ) ــ أي بعد وفاة المؤلف بثلاثة عشر عاماً ــ من رواية الشيخ مجد الدين يوسف أبي المظفر بن محمد بن عبد الله الشافعي الكاتب، ومجد الدين نقل نسخته من أصل المؤلف بخطه، وقرأها عليه[2]، وهذا الأصل الذي نقل منه مجد الدين يوسف هو الأصل الذي عدَّه المؤلف «الأصل الذي يعتمدُ عليه ويركن إليه»، وذلك قبل وفاته بنحو أربع عشرة سنة، فقد جاء في الصفحة الأخيرة من نسخة ليدن[3] حاشية نقلت من النسخة التي كتبها قاضي القضاة نجم الدين بن صَصْرَىٰ الشافعي، يقول: «شاهدت على آخر الجزء الأول من الأصل المنقول من هذه النسخة بخط المؤلف: آخر المجلدة الأولى من كتاب الروضتين، فرغ منها مصنِّفها نسخاً في حادي

---

(١) انظر ص ٨ من مقدمة الجزء الأول.

(٢) انظر الحاشية رقم ٥ ص ٤٣٠ من الجزء الأول.

(٣) لم نتمكن من الوقوف عليها، ولكن اطلعنا على الصفحة الأخيرة منها من «مجلة معهد المخطوطات» ١/ ٢٤٢ ــ ٢٤٣، وسننشر صورة عنها في آخر هذه المقدمة.

عشر شهر رمضان المبارك سنة إحدى وخمسين وست مئة، واشتملت هذه النسخة المبيضة على زيادات كثيرة فاتت النسخ المتقدمة على هذا التاريخ المنقولة من المسودة، وكل ما ينقل من هذه النسخة هو الأصل الذي يعتمد عليه ويركن إليه، والله الموفق في جميع الأمور، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم. وكتبه عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الشافعي مصنفه، عفا الله عنه».

ثم نقل ابن صَصْرى حاشية أخرى بخط مجد الدين يوسف، وفيها تصريحه بقراءته هذا الكتاب على مصنفه، وسماع بعض العلماء منه، وذلك سنة (٦٦٤ هـ) بدار الحديث الأشرفية. يعني قبل وفاة أبي شامة بعام واحد.

فرواية مجد الدين يوسف لهذا الكتاب تُعد أكمل وأوثق نص يمكن أن يعتمد عليه في إخراجه[1]، ولا يقلل من قيمتها ما اعتور هذه النسخة من اضطراب في ترتيب بعض أوراقها، فقد أعدناها إلى حاق موضعها، كما أن الأوراق العشرة الأخيرة منها قد كتبت بخط مغاير، ولا يؤثر ذلك في نفاسة النسخة.

ونسخة مجد الدين هذه هي التي جعلتُها أصلاً لي في تحقيق هذا الجزء، وإياها أعني حين أقول: في الأصل.

٢ ــ نسخة كوبنهاجن، ورقمها Arab CLV:

وهي نسخة متقنة، تقع في (٢٧٣) ورقة، إلا أنها تبدأ في أثناء حوادث سنة (٥٧٧ هـ) عند ذكر وفاة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين[2]؛ يعني

(١) ولا ننسىٰ أيضاً أن نسخة كوبنهاجن التي اعتمدناها أصلاً في تحقيق الجزء الأول قد قوبلت على نسخة الشيخ مجد الدين يوسف بن محمد الشافعي، انظر الحاشية رقم ٥ ص ٤٣١ من الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٢) انظر ص ٧٥ من الجزء الثالث من هذا الكتاب.

أنها تنقص أخبار سنوات (٥٧٤ هـ) و (٥٧٥ هـ) (٥٧٦ هـ)، وبعضاً من أخبار سنة (٥٧٧ هـ)، وهناك بعض السقط فيها، ولا سيما في رسائل القاضي الفاضل، وتعقيبات المؤلف على بعض الأخبار، وثمة تقديم وتأخير في إيراد بعض الأخبار يخالف ما في الأصل الذي اعتمدنا عليه، وقد أشرت إلى كل ذلك في مواضعه، ومن ثم نستنتج أن هذه النسخة منقولة عن إحدى مسودات المؤلف بخطه، وتمثل مرحلة متقدمة من مراحل تأليف هذا الكتاب، ولا يعني هذا أنها ليست بذات قيمة في تحقيق هذا الجزء، فقد أسعفتنا في كثير من الأحيان بالقراءة الصحيحة لكلمات سها فيها ناسخ الأصل، أو كانت فيها أملك في المعنى من غيرها، ومما زاد من قيمتها أنها قوبلت بأصل المصنف بخطه كما جاء في آخرها. . . وأرجح أنها كتبت في أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن الهجري، وقد رمزت لها بالحرف (ك).

٣ ــ نسخة برلين، ورقمها 9812:

وهي نسخة متأخرة سقيمة، تقع في (١٦٢) ورقة، تبدأ في أثناء حوادث سنة (٥٧٧ هـ) عند ذكر العماد ما أسقطه السلطان من مكس مكة[1]، ويبدو أن ناسخها ــ وهو خضر بن خضر بن حسن بن محمد بن حسن بن حاجي علي بن إسماعيل الآمدي ــ لم يكن من أهل العلم، فقد اختصر فيها كثيراً من أخبار الكتاب اختصاراً مخلاً، وأسقط كثيراً من الحوادث والأشعار، وفشا فيها التصحيف والتحريف، وقد فرغ من نسخها في ثامن عشر محرم الحرام سنة (٩٣٨ هـ)، ولم

---

(١) انظر ص ٩ من الجزء الثالث من هذا الكتاب.

أرجع إلى هذه النسخة إلا لماماً، إنما استأنستُ بها ــ على الرغم من عيوبها ــ في بعض ما أشكل عليَّ، وقد رمزت لها بالحرف (ب).

وبعد:

رَبِّ أوزِعْني أَنْ أشكُرَ نِعْمتَكَ التي أَنْعَمْتَ عليَّ وعلىٰ والديَّ وأَنْ أَعْمَلَ صالحاً تَرْضَاه وأَصْلِحْ لي في ذُرِّيَّتي إنِّي تُبْتُ إلَيْكَ وإنِّي من المسلمين.

إبراهيم الزريق

دمشق في
١ شوال ١٤١٣
٢٥ آذار ١٩٩٣

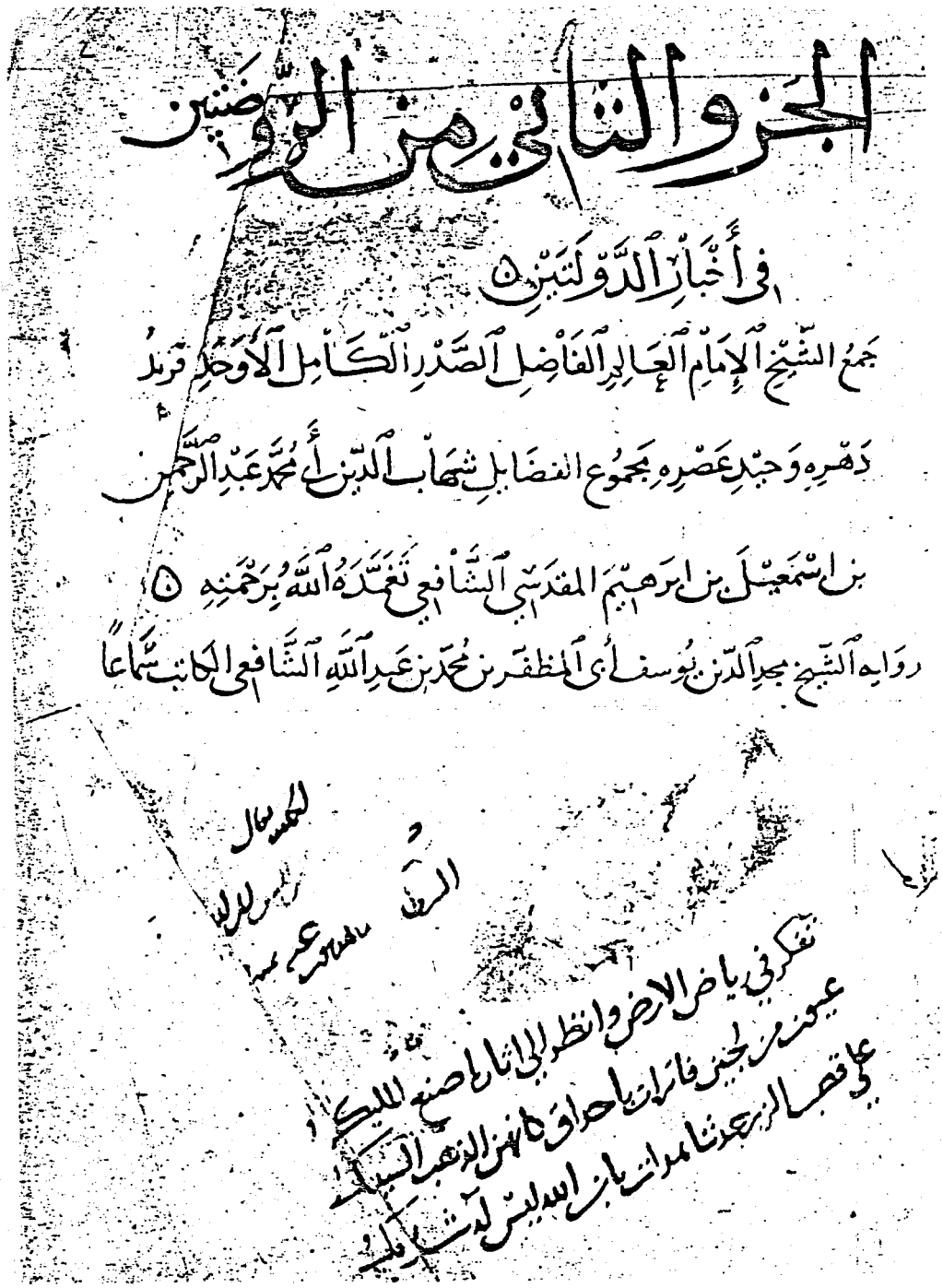
الجزء الثاني من الروضتين

في أخبار الدولتين

جمع الشيخ الإمام العالم الفاضل الصدر الكامل الأوحد فريد

دهره وحيد عصره مجموع الفضائل شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن

بن اسمعيل بن ابرهيم المقدسي الشافعي تغمده الله برحمته

رواه الشيخ محي الدين يوسف أبي المظفر بن محمد بن عبد الله الشافعي الكاتب سماعا

صفحة الغلاف من نسخة بودليان

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمس مئة

ق 74

تحالف العادل وكان شمس الدين بن المقدم من أكابر الأمراء وهو السابق إلى مكاتبة السلطان في تقويت رأيه في الوصول إلى الشام وتدارك أمر الإسلام وكان السلطان عند تسلم بعلبك انعم بها عليه وردّ أمورها إليه فأقام بها مستقرًا ولأخلاف أعمالها مستندًا ولما وصل السلطان في هذه النوبة إلى الشام لم يحضر كما جرت العادة لخدمه والسلم فانه كان نمى إليه أن الملك المعظم فخر الدين شمس الدولة نور الله بن ايوب طلبها من أخيه وانه لا يحمد الرد فخاف من حضوره ان تتم الامور ويرجع إلى ذلك مرارا سرا وجهارا والتزم له أن يعوض عنها ما هو أوفى منها فأبى إلا الإباء وشارف السلطان منه ومن أخيه الحياء وشمس الدولة لا يقبل عذرا ولا يرى عما طلبه صبرا ثم استأذن أخاه في التوجه إليها فأذن له وتوجه عز الدين فوجاه الى حوران لحفظ الثغور وسار السلطان إلى حمص ونزل على العاصي عازما على الجهاد

ووردت من الفاضل كتب من بعض فصولها وأما سور القاهرة فعلى ما أمر به المولى شرع فيه وخطر العمل وطلع البناء وسلكت به الطريق المؤدية إلى الساحل بالمغنم فالله يقصر المولى إلى أن يراه نطاقا مستديرا على البلدين وسورا بل سوارا يكون به الإسلام محلى الدين محلا الصدين والامير بها الدين قراقوش ملازم الاستحثاث بنفسه ورجاله لازم لما تعنيه بخلاف أمثاله قليل التنقل مع حمله الاعباء الثقيل وأنا أحمل منها إلى حق نقل القضاء من شرف الدين بن عصرون لما ذهب بصره إلى ولده لن يخلو الأمر من قسمين والله يختار للمولى خيرة الاقسام ولا ينسى هذا الفتح الذي لا يبلغه ملك من ملوك الاسلام أما بقاء الأمر باسم الطلد بحيث يبقى رأيه مشاورته وفتيا

الصفحة الأولى من نسخة بودليان

سلم القصر ما فيه واستظهر على اقارب العاضد وبنيه وتولى عمارة الاسوار
المحيطة بمصر والقاهرة واتى فيها بالعجايب الظاهرة وكان معاذ الله التجا
وملاذ الارتجاء عنه انتسب الى الحجاج لشدة ثباته وفرط جموده ولا
يكاد يعج لصلاته عوده ولما توفي تسلم العادل داره بما حوته من الذخاير
وصارت اقطاعاته للملك الكامل فقال وفيها نقل الى العادل عن غلام
الامير ايبك الغطيس ان جماعة قد عزموا على الفتك بالعادل حال ركوبه
واسند اصل ذلك الى المكين المعز اسحق والمؤيد مسعود ولدي صلاح الدين
رحمه الله فاحضر الغلام وعصره فمات ولم يقر واعتقل المعز والمؤيد
ونتج من اتهمه في ذلك من الامرا الصلاحيه وتكلم الناس باحاديث في هذه
القضيه قال وفي هذه السنه استد الغلا واشتد البلا وتحققت المجاعه
وتفرقت الجماعه وهلك القوي فكيف الضعيف ونهك السمين فكيف النحيف
وخرج الناس حذر الموت من الديار وتفرق فرق مصر في الامصار ورايت
الارامل على تلك الرمال والجمال باركة تحت الاحمال ومراكب الفرنج على
ساحل البحر عند اللقم تستبق الجياع باللقم فنقل من الى الشام خلق لا يعد
ان قل عدد اهله ونقصهم قلت ثم زالت تلك الشدة بعد مدة وتوفي
العماد الكاتب رحمه الله مصنف هذه الكتب الفتح والبرق وهذه الرسايل
اللات العتبي والنحله والخطفه بدمشق في اول شهر رمضان من هذه السنه
وهي سنه سبع وتسعين وخمسمايه ودفن لمقابر الصوفيه بالشرف القبلي وفي
هذه السنه توفي الشيخ ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ رحمه
الله تعالى وبها في الملك الافضل بشميساط في سنه احدى وعشرين وستمايه
وحمل الى حلب فدفن بها وتوفي الملك الطاهر بحلب في سنه ثلاث عشره وستمايه
وفيها توفي بدمشق الشيخ تاج الدين ابو اليمن زيد بن الحسن الكندي ودفن بالجبل
وتوفي الملك العادل ابو بكر بن ايوب بدمشق في سنه خمس عشره وستمايه وابنه
المعظم في اواخر سنه اربع وعشرين وستمايه واخواه الاشرف والكامل في سنه
خمس وثلاثين وستمايه رحمه الله تعالى ووفق من بقي من اهل بيته واصلح ذات بينهم امين
تم الجزء الثاني من الروضتين ويتلوه في الجزء الثالث ذكر الخليفة الناصر محمد بن الظاهر
سنه ثمان وتسعين وستمايه

الصفحة الأخيرة من نسخة بودليان

بسم الله الرحمن الرحيم

الصفحة الأولى من نسخة كوبنهاجن

الصفحة الأخيرة من نسخة كوبنهاجن

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق و
آخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين

السنة الرابعة والسبعين وخمسمائة من الهجرة قال عماد الدين اصفهاني استقر السلطان
الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن ايوب بن شاذي الذي كان توخذ مرخ
في مملكة شتربا الدمر وعوض امير حاجب غزة تحمل اليه في كل سنة وتعين صيرفي يوقف
عليها تحمل اليه غلاتها من مصر كان الرسم بمملكة ان يؤخذ من حاج الغرب على عدد النفوس
ما ينسب الى الضرائب والنفوس فاذا دخل الحاج حبس حتى يؤدي عنه ويؤدي عما
يطلبون منه نفسه واذا كان فقيرا لا يملك شيئا حبس ويترك وتفوت الوقفة بعرفة ولا يبرحها
فقال السلطان يريد نعوض امير منه عن هذا المكس مال ونعينه عنه بمال وان
اعطيناه ضياعا استوعبها ارتفاعا وانتفاعا ولا يكون لاحد منه فيها نصيب فقرر معه
ان تحمل اليه في كل سنة مبلغ ثمانمائة الف اردب فحج تحمل الى ساحل جاره فان الامير
بها يحتاج الى بيعها لانتفاع من اثمانها وتثق احمال الحرمين من الدولة بدوام احسانها
وتتيسر ايضا حمل الغلات الى المجاورين بالحرمين والفقراء من فقراء من الشرفاء ووقفها
وقوفا وخلدها الى قيام الساعة معروفا فسقطت المكس ومن الشرف والنفوس واستمر
النعمى ومن البؤس وذلك في سنة اثنين وسبعين ومن كلام القاضي الفاضل في ذلك في بعض
كتبه ومن البشائر التي اعتمد الحاج ديار مصر من مثلها ولا عهد لمثلك من مفرق الديار المصرية
بالحصول على فرجها واجرها انقطاع المكاسين عن جده وعن بقية السوء حار ويلقى تمام
هذه المثوبة موجب الاستطاعة متيم نجحة الله في نجح وما اكثر ما اجراه الله للحاجين على يد
الملوك من الارزاق التي تقصر عن الاستحقاق وما لولاده بان يتوخى المعروف مكانه
من حاجين الحرمين المجتهدين من اسعاف احرار الاقدار والمحروم من قدر فيها على
الخير فاضاع فرصته يترك الدار وغير خائب عن مولانا عمت الافراح بالقدس برا وبحرا

الصفحة الأولى من نسخة برلين

الصفحة الأخيرة من نسخة برلين

الصفحة الأخيرة من نسخة ليدن

٢/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ

ثُمَّ دَخَلَت سَنَةُ أَرْبَعٍ وسَبْعين وخَمْسِ مِئَةٍ

قال العمادُ: وكان شمسُ الدِّين بن المُقَدَّم من أكابر الأمراء، وهو السَّابق إلى مكاتبة السُّلْطان في تصويب رأيه في الوصول إلى الشَّام، وتدارك أمر الإسلام[١]. وكان السُّلْطان عند تسلُّم بَعْلَبَك أَنْعَمَ بها عليه، ورَدَّ أمورها إليه، فأقام بها مستقراً، ولأخلاف[٢] أعمالها مستدرّاً. ولما وصل السلطان في هذه النَّوْبة إلى الشَّام لم يَحْضُر ــ كما جَرَتِ العادَةُ ــ للخدمَةِ والسَّلام، فإنه كان نَمَى إليه أن الملك المُعَظَّم فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب طَلَبها من أخيه، وأنه لا يمكنه الرَّدُّ، فخاف من الحضور أن تتمَّ الأمور، ورُوْجِعَ في ذلك مراراً سِرًّا وجِهاراً، والتزم له أن يُعوَّض عنها ما هو أوفى منها، فأبى إلا الإباء، وشارفَ السُّلْطان منه ومن أخيه الحياءَ. وشمس الدولة لا يقبَلُ عُذْراً ولا يرى عما طلبه صبراً. ثم استأذن أخاه في التوجُّه إليها، فأذِنَ له، وتوجَّه عِزُّ الدين فَرُّخْشاه إلى حَوْران لحفظ الثُّغور، وسار السلطان إلى حمص، ونزل على العاصي عازماً على الجهاد[٣].

ووردَتْ من الفاضل كتبٌ، من بعض فصولها: وأما سور القاهرة فعلى

---

(١) انظر ص ٣٤٢ وما بعدها من الجزء الثاني.

(٢) مفردها خِلْف: وهو ضرع الناقة، وكل ذات خف وظلف. انظر «معجم متن اللغة»: ٢/ ٣٢٢.

(٣) انظر «البرق الشامي»: ٣/ ٩٢ ــ ٩٤، و«سناه»: ١/ ٢٩٢ ــ ٢٩٤.

ما أمر به المولى شُرِعَ فيه، وظهر العمل وطلع البناء، وسلكت به الطريق المؤدِّية إلى السَّاحل بالمقسم*، والله يُعمِّر المولى إلى أن يراه نِطاقاً مستديراً على البلدين، وسوراً بل سِوَاراً يكونُ به الإسلام مُحلَّى اليدين، مُحَلأ الضِّدَّين. والأمير بهاء الدين قَرَاقوش ملازمٌ الاستحثاثَ بنفسه ورجاله، لازمٌ لما يعنيه بخلاف أمثاله، قليل التثقيل مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله[1].

ومنها في حَقِّ نقل القضاء من شرف الدين بن أبي عَصْرُون لما ذهب بصرُه إلى ولده[2]: لن يخلو الأمر من قسمين ــ والله يختار للمولى خِيْرَةَ الأقسام، ولا ينسىٰ [له][3] هذا التحرُّج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام ــ إما إبقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشاورته، وفتياه وبركته، ويتولَّى ولده النيابة ويشترط عليهما المجازاة لأوَّل زلَّة، وترك الإقالة لأول عثرة، فطالما بعث حبُّ المنافسة الراجحة على اكتساب الأخلاق الصَّالحة. وإما أن يُفَوَّض الأمر إلى الإمام قُطْب الدين[4]، فهو بقية المشايخ، وصدرُ الأصحاب، ولا يجوز أن يتقدَّم عليه في بلد إلا مَنْ هو أرفعُ طبقةً في العِلْم منه[5].

ومنها في إقامة عذر التأخر عن الجهاد: وأما تأسُّف المولى على

---

(١) «البرق الشامي»: ٣/ ٩٧ ــ ٩٨، و«سناه» ١/ ٢٩٦ ــ ٢٩٧.

(٢) انظر ص ٤٣٠ من الجزء الثاني.

(٣) ما بين حاصرتين ليست في الأصل، وثمة إشارة إلى استدراكها في الهامش، لكنه ذهب بالخرم الذي أصاب بعض كلمات السطرين الأخيرين، وما أثبتناه من «البرق الشامي»: ٣/ ٩٨.

(٤) هو النيسابوري، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٣ من الجزء الأول.

(٥) انظر «البرق الشامي»: ٣/ ٩٨ مع اختلاف في بعض الألفاظ، و«سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٩٧ ــ ٢٩٨.

أوقاتٍ تنقضي عاطلةً من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدُّد العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها، فللمولى نيَّةُ رُشْده، وأليس اللَّهُ العالم بعبده، وهو سبحانه لا يسألُ الفاعل عن تَمام فعله، لأنه غير مقدورٍ له، ولكن عن النيَّةِ لأنها محلُّ تكليف الطَّاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة. وإذا كان المولى [آخذاً][1] في أسباب الجهاد، وتنظيف الطُّرُقِ إلى المُراد، فهو في طاعةٍ قد امتنَّ الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أملٍ في نُجْح موعدِها، والثَّواب على قدر مشقَّته، وإنما عَظُمَ الحجُّ لأجل جُهده وبُعْدِ شُقَّته، ولو أنَّ المولى فتح الفتوحَ العِظام في أقلِّ الأيَّام، وفَصَلَ القضيَّة بين أهل الإسلام وأعداء الإسلام، لكانت تكاليفُ الجهاد قد قضيت، وصحائفُ البرِّ المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت[2]. ٣/٢

ومنها في ذكر أولاد السُّلْطان: وقبل الإجابة عن الفصول فنبشِّر بما جرت العادَةُ به، لا قطع اللَّهُ تلك العادة، من سلامةٍ وصحَّةٍ وعافيةٍ شَمَلتْ موالينا أولاده السَّادة، أطاب الله الخبر إليهم عن المولى وإلى المولى عنهم، وعجَّل لقاءه لهم ولقاءهم له، فإنهم من يلق منهم [بل][3] كلٌّ منهم ملكٌ دَسْتُه برجُه، وفارسٌ مهده سَرْجُه، فهم ــ بحمد الله ــ بهجةُ الدُّنيا وزينَتُها، وريحان الحياة وزهرتها، وإنَّ فؤاداً وسعَ فراقَهم لواسعٌ، وإن قلباً قنع بأخبارهم لقانع، وإنَّ طَرْفاً نام على البُعْد عنهم لهاجع، وإن ملكاً مَلَكَ تصبُّرَه عنهم لحازم، وإن نعمة الله فيهم لنعمةٌ بها العيشُ ناعم، أما يشتاقُ

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٢/ ٣، وفي «البرق الشامي»: ٣/ ٩٩: «يسبب الأسباب».

(٢) انظر «البرق الشامي»: ٣/ ٩٩ ــ ١٠٠ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٢/ ٣.

جِيْدُ المولى أن يتطوَّق بِدُرَرِهم؟ أما تظمأ عينه إلى أن تتروَّى بنظرهم؟ أما يحنُّ قلبه على قلبه؟ أما يلتقط هذا الطائر بتقبيلهم ما خرج من حبه؟ وللمولى ــ أبقاه الله تعالى ــ أن يقول:

وما مِثْلُ هذا الشوق تحمل مُضْغَةٌ ولكنَّ قلبي في الهوى بقلوبِ

وفي أخرى: والملوك الأولاد في كَفَالة العافية لا رَفَعَتْ عنهم كفالتها، وعليهم جلالةُ السلطنة لا فارَقَتْهم جَلالَتُها، وكلٌّ من الموالي السَّادة الأمراء الأولاد، والقِلادة كلُّها جوهر، وكلُّهم المقدَّم، وليس فيهم ــ بحمد الله ــ من يؤخَّر، على ما عوَّد الله من صحَّةٍ وسلامةٍ وكفايةٍ ووقاية، ولزوم المستقلِّ منهم لمشهد الكُتَّاب ولموقف الأماج[1]، ومخايل الخَفَرِ فيهم من تحت ليل الصِّبا أنورُ دلالةً من ضوء السِّراج، والله تعالى يمدُّ في عُمر المولى إلى أن يرى من ظهورهم ما رأى جَدُّهم ــ رحمه الله ــ في أهل بيته من البطن الرَّابع، فوارس الحرب الرائعة، وملوك الإسلام التي منهم للإسلام أكاسرةٌ وتبابعة.

ما فيهمُ[2] عِنْدَ العلاءِ صغيرُ وصِغَارُ أبناءِ الكِبارِ كِبارُ

نجومُ الأرض، وذُرِيَّة بعضُها من بعض، والخلف الصَّالح المحض[3]، وهم في الدُّنيا والآخرة فُرْسان القوَّة والتُّقى يوم[4] الحرب ويوم العَرْض.

---

(١) الأماج: الدريئة، وهي كلمة فارسية. انظر «تكملة المعاجم لدوزي [الترجمة العربية] ١/ ١٨٥ حاشية رقم (٣٩٧)، و«قاموس الفارسية»: ٥٢. قلت: وفي هذه العبارة إشارة إلى ملازمة البالغين منهم للدرس وتعلم الرمي.

(٢) في الأصل: وما فيهم، وبه لا يستقيم الوزن.

(٣) في «البرق الشامي»: ٣/ ١٠١ «والخلف الصالح المحض من الخلف الصالح المحض».

(٤) في الأصل: ويوم، والمثبت من «البرق»: ٣/ ١٠١.

ومنها في ذمِّ ماء دمشق ووخمها: عرف المملوك من الكتب الواصلة التياث جسم المولى الأمير عثمان[1]، والحقير مما ينالُ ذلك الجسمَ الكريم، يوقدُ في قلوب الأولياء الأثر العظيم. و

قليلُ قَذَاةِ العَيْنِ غَيْرُ قليلِ

وماذا يقول في بلدٍ لو صحَّت الحِمْيةُ من مائه لكانت من أكبر أسباب صحَّةِ المحتمي وشفائه، فإنه ماءٌ يؤكل، وبقيَّةُ المياه تُشْرَب، ويجدُ وخامَتَه من ينصف ولا يتعصَّب[2].

ومنها: وأما المأمور به في معنى المنكرات الظَّاهرة، وإزالة أسبابها، وإغلاق أبوابها، وتحصين كل مبتوتةٍ[3] من عصمة، وتطهير كل موسومة بوصمة، فاللهُ يثيب المولى ثوابَ من غَضِبَ ليُرْضِيَه بغضبه، وحَمَلَ الخَلْقَ على مِنْهاج شَرْعه وأدبه[4].

ثم أورد العماد فصولاً كثيرةً، وقال: إنما أوردتُ الفصول الفاضلية، لأنَّ في كل فصلٍ منها ذكر سيرة، وفوائد كثيرة[5].

فَصْـــلٌ[6]

قال العماد: ومن جُملة ما أغفلتُه ذِكْر ما أسقطه السلطان من مَكْس

---

(١) هو العزيز، وكان له من العمر هنا سبع سنين، انظر ص ٤٧٥ من الجزء الثاني.
(٢) انظر «البرق»: ٣/ ١٠١، و«سناه»؛ ١/ ٢٩٩.
(٣) المبتوتة: هي المرأة المطلقة طلاقاً بائناً. انظر «اللسان» (بتت).
(٤) «البرق»: ٣/ ١٠٣، و«سناه»: ١/ ٣٠١.
(٥) «البرق»: ٣/ ١٠٥، و«سناه»: ١/ ٣٠٣.
(٦) من هنا تبدأ نسخة برلين، ورمزت لها بحرف (ب).

مكة ــ شَرَّفها الله تعالى ــ عن الحاجِّ، وتعويض أميرها بجلاب* غَلَّة تُحمل إليه في كُلِّ سنةٍ، وتعيين ضياع موقوفة عليها بالأعمال المصرية.

كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس ما ينسب إلى الضَّرائب والمكوس، فإذا دخل حاجٌّ حُبِسَ حتى يؤديَ مَكْسَه، ويَفُكَّ بما يطلبونه منه نَفْسَه، وإذا كان فقيراً لا يملك، فهو يحبس ولا يُترك، وتفوته الوقفة بعَرَفة ولا تُدْرَك. فقال السُّلْطان: نريد أن نُعوِّض أميرَ مكَّة عن هذا المكس بمالٍ، ونغنيه عنه بنوال، وإن أعطيناه ضياعاً استوعبها ارتفاعاً وانتفاعاً، فلا يكونُ لأهل مكَّة فيها نصيب. فقرَّر معه أن يحمل إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف إرْدَبّ[1] قمح إلى ساحل جُدَّة، فإن الأُمير بها يحتاج إلى بيعها للانتفاع بأثمانها، ويثق أهل الحرمين من الدَّوْلة بدوام إحسانها. وقرَّر أيضاً حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين والفقراء، ومَنْ هناك من الشرفاء، ووقف لها وقوفاً، وخلَّد بها إلى قيام السَّاعة معروفاً، فسقطت المكوس، واغتبطت النفوس، وزاد البِشْرُ وزال العُبوس، واستمرتِ النُّعمى ومرَّ[2] البوس، وذلك في سنة اثنتين وسبعين[3].

ومن كلام الفاضل في ذلك في بعض كتبه: من البشائر التي لا عهد لحاج ديار مصر بمثلها، ولا عَهْدَ لملكٍ من ملوك الدِّيار المِصْرية بالحُصول على فخرها وأَجْرها، انقطاع المكَّاسين عن جُدَّة وعن بقية السَّواحل، ويكفي

---

(١) الإردب: كيل لأهل مصر يسع أربعة وعشرين صاعاً بصاع النبي ﷺ، يزن اليوم ٣٩,٥٨٨ كيلاً. انظر «معجم متن اللغة»: ٢/ ٥٦٩.

(٢) في الأصل: وزال، والمثبت من (ب)، وهو يوافق ما ورد في «البرق» و«سناه».

(٣) «البرق»: ٣/ ١٠٥، و«سناه»: ١/ ٣٠٣ ــ ٣٠٤.

أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة[1]، مقيم لحُجَّة[2] الله في الحجِّ؛ فقد
٤/٢ كانت الفُتيا على سقوطه مع وجود الحامل، وما أكثر ما أجرى الله للخلائق
على يد المولى من الأرزاق، التي تفضل عن الاستحقاق، وما أولاه أن
يتوخَّى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من إسعاف
أهل الاقتدار، والمحروم من قَدَرَ فيهما[3] على خيرٍ فأضاع فُرْصَتَه بترك
البِدَار. وغير خافٍ عن مولانا همَّة الفرنج بالقدس بَرًّا وبحراً، ومركباً
وظَهْراً، وسِلْماً وحَرْباً، وبُعْداً وقُرْباً، وتوافيهم على حمايته وهو أنفٌ في
وجه الإسلام، ومسارعتهم إلى نُصْرة أهليه بالأرواح والأموال على مَرِّ
الأيام. ومعاذ الله أن يستبصروا في الضَّلال، ونصرف نحن عن الحقِّ وتضيق
بنا في التوسعة على أهله سَعَة المجال[4].

المملوك في مستهل رجبٍ بمشيئة الله تعالى يُعَوِّل على السَّفَر إلى
الحجاز لقضاء الفريضة قولاً وفعلاً، والسَّائرون في هذه السنة بطمعة وقفة
الجمعة وبفُسْحَة وضع المكس خَلْقٌ لا يحصى، والمولى شريكٌ في أجرهم،
فليَهْنه أن الملوك عمرت بيوتها فخربت، وأنَّ المولى عَمَرَ بيت الله، فمن
كرمه ــ سبحانه ــ أن يَعْمُرَ بيت المولى، وما أشدَّ خجل الملوك[5] من
النبي ﷺ في التقصير في قوت جيرانه في هذه السنة، وما هكذا وصَّى ابن

---

(١) في (ب) للاستطاعة، ومثله في «البرق».
(٢) في (ب) بحجة، ومثله في «البرق».
(٣) في الأصل: منهما، وفي (ب) فيها، ومثله في «البرق»، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٢/ ٤.
(٤) انظر «البرق الشامي»: ٣/ ١٠٦، و«سناه»: ١/ ٣٠٤ ــ ٣٠٥.
(٥) في «البرق» المملوك.

اللَّمَطي، ولكن للغائب حُجَّته[1].

قلت: وفي هذه المكرمة التي فعلها صلاح الدين رحمه الله بالحاجّ يقول الشيخ الفاضل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبير الأندلسي[2] من قصيدةٍ له يمدح بها صلاح الدين ــ وستأتي فيما بَعْدُ[3] ــ أخبرني بها ثِقَةٌ نقلها من خطِّه:

رَفَعْتَ مغارِمَ مَكْسِ الحجاز ... بإنعامك الشَّامل الغامِرِ
وأمَّنْتَ أكنافَ تلك البلاد ... فهانَ السَّبيلُ على العابِرِ

---

(١) في الأصل: محجته، والمثبت من «البرق»: ٣/ ١٠٧.

(٢) هو صاحب الرحلة المشهورة، كان مولعاً بالترحل والتنقل، ولد سنة (٥٤٠ هـ) في بلنسية، وزار المشرق ثلاث مرات، الأولى (٥٧٨ ــ ٥٨١ هـ) وهي التي ألف فيها رحلته، وقد طبعت غير مرة، بتحقيق الدكتور حسن نصار، والرحلة الثانية كانت في شهر ربيع الأول سنة (٥٨٥ ــ ٥٨٧ هـ) وكان فتح بيت المقدس سنة (٥٨٣ هـ) من أقوى أسبابها، إذ أراد أن يجمع زيارة المساجد الثلاثة: المسجد الأقصى، والمسجد النبوي، والمسجد الحرام. والرحلة الثالثة كانت سنة (٦٠١ هـ) وذلك بعد وفاة زوجه بأيام، ووصل مكة أثناء سنة (٦٠٢ هـ)، فجاور فيها طويلاً، ثم جاور بالقدس، ثم تحول إلى مصر والإسكندرية، فأقام بها حتى وفاته سنة (٦١٤ هـ).

كان شاعراً رقيقاً، له ديوان شعر، منه جزء سماه «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح» أودعه قطعاً وقصائد في مراثي زوجه، والتوجع لها أيام حياتها، وكانت زمانة قد طاولتها مدة. ومنه جزء أيضاً سماه «نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان»، يشتمل على أزيد من مئتي بيت.

انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ٢/ ٤٠٧، و«التكملة» لابن الأبار: ٢/ ٥٩٨ ــ ٥٩٩، و«المغرب في حلى المغرب»: ٢/ ٣٨٤ ــ ٣٨٥، و«الذيل والتكملة» للمراكشي: ٥/ق ٢/ ٥٩٥ ــ ٦٢١، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٤٥ ــ ٤٧، و«غاية النهاية»: ٢/ ٦٠، و«نفح الطيب»: ٢/ ٣٨١ ــ ٣٨٨.

(٣) انظر ص ٣٧٢ ــ ٣٧٣ من هذا الجزء.

وسُحْبُ أياديكَ فيَّاضَةٌ ... على واردٍ وعلى صَادِرِ
فكَمْ لك بالشَّرْق من حامِدٍ ... وكم لك بالغَرْبِ من شاكر
وكم بالدُّعاء لكُمْ كلَّ عامٍ ... بمكَّةَ من مُعْلنٍ جاهرِ
وقد بقِيَتْ حسبةٌ في فلانٍ ... وتلكَ الذَّخِيْرَةُ للذَّاخِرِ

يُعَنِّفُ حُجَّاجَ بيتِ الإلٰهِ ... ويسطو بهمْ سَطْوَةَ الجائرِ
ويكْشِفُ عَمَّا بأيديهمُ ... وناهِيْكَ من موقفٍ صاغِرِ
وقد وَقَفُوا بعدما كُشِفُوا ... كأنهمُ في يَدِ الآسِرِ
وَيُلْزِمُهُمْ حَلِفاً باطلاً ... وَعُقْبى اليمينِ على الفاجرِ
وإنْ عَرَضَتْ بينَهُمْ حُرْمَةٌ ... فليس لها عنه من ساتِرِ
أليس يخافُ غداً عَرْضَهُ ... على الملكِ القادِرِ القاهِرِ

أليس على حُرَمِ المسلمين ... بتلك المشاهِدِ من غائرِ
ألا حاضِرٌ نافعٌ زَجْرُهُ ... فيا ذِلَّةَ الشَّاهد الحاضِرِ
ألا ناصِحٌ مُبْلِغٌ نُصْحَهُ ... إلى الملك النَّاصر الظَّافر
ظلومٌ تَضَمَّنَ مالَ الزكاةِ ... لقد تَعِسَتْ صَفْقَةُ الخاسر
يُسِرُّ الخيانَةَ في باطنٍ ... وَيُبْدِي النَّصِيْحَةَ في الظَّاهِرِ
فأَوْقِعْ به حادثاً إنه ... يُقَبِّحُ أُحْدُوثَةَ الذَّاكر

فما للمناكِرِ من زاجرٍ ... سِوَاكَ وبالعُرْفِ من آمر
وحاشاكَ إنْ لم تُزِلْ رَسْمَها ... فما لك في النَّاس من عاذِرِ
وَرَفْعُك أمثالَها موسِعٌ ... رداءَ فَخَارِكَ للنَّاشِرِ
وآثارُكَ الغُرُّ تبقى بها ... وتلكَ المآثر للآثِرِ
نَذَرْتُ النَّصيحةَ في حَقِّكُمْ ... وَحُقَّ الوَفَاء على النَّاذِرِ
وَحُبُّكَ أنطقني بالقريض ... وما أبتغي صِلَةَ الشَّاعِرِ

ولا كـان فيمـا مضـى مكسبـي ... وبِئْـسَ البِضَـاعَـةُ للتَّـاجِـرِ
٥/٢ إذا الشِّعْـرُ صـار شِعَـار الفتـى ... فَنَـاهِيْـكَ مِـنْ لَقَـبٍ شـاهِـرِ
وإنْ كـان نَظْمـي لـه نـادراً ... فقـد قيـل لا حُكْـمَ للنَّـادِرِ
ولكنَّمـا خَطَـراتُ الهـوىٰ ... تَعِـنُّ فَتَلْعَـبُ بـالخـاطِـرِ
أمـا وقـد زَانَ تلـك العُـلا ... فقـد فـازَ بـالشَّـرَفِ البـاهِـرِ
وإن كـان منـك قَبُـولٌ لـه ... فتلـك الكَـرَامَـةُ للـزَّائـرِ
ويكفيـه سَمْعُـكَ مـن سـامـعٍ ... ويكفيـه لَحْظُـكَ مـن نـاظِـرِ
وَيُزْهَى على الرَّوْضِ غِبَّ الحيا ... بما حازَ مِنْ ذِكْرِكَ العاطِرِ[1]

قال العماد: وفي المحرَّم من هذه السنة توفي الحكيم مهذَّبُ الدين أبو الحسن علي بن عيسى المعروف بابن النَّقَّاش البغدادي بدمشق[2]، وكان

(١) انظر القصيدة مع اختلاف في بعض ألفاظها في «الذيل والتكملة» للمراكشي: ٥/ق ٢/٥٩٨ ــ ٦٠١، ومنها أربعة أبيات في «نفح الطيب»: ٢/ ٣٨٣.

(٢) كان والده عيسى من ظرفاء بغداد وأعيانها، صاحب نوادر وملح، وله شعر رقيق، عمل نقاشاً للحلي ثم صار بزازاً. ولد سنة (٤٥٧ هـ)، وتوفي سنة (٥٤٤ هـ). انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج ١/ج ٣/٤٨ ــ ٥١، و«المنتظم»: ١٠/ ١٤١، و«فوات الوفيات»: ٣/ ١٦٥ ــ ١٦٦.

أما مهذب الدين هذا فقد ولد ونشأ ببغداد، واشتغل بصناعة الطب على رئيس أطباء بغداد أمين الدولة هبة الله بن صاعد بن التلميذ المتوفى سنة (٥٦٠ هـ)، وحين هاجر مهذب الدين إلى دمشق كان أوحد زمانه في صناعة الطب، وأقام بدمشق زمناً، كان له فيها مجلس عام للمشتغلين عليه، ثم توجه إلى الديار المصرية، وأقام بالقاهرة مدة، ثم رجع إلى دمشق، فأقام بها إلى حين وفاته في هذه السنة. وقد خدم بصناعة الطب الملك العادل نور الدين، ومن بعده صلاح الدين، وقام على البيمارستان النوري عدة سنين.

وكان يتكلم الفارسية، وله يد في صناعة الإنشاء، وكتب كثيراً لنور الدين المراسلات والكتب إلى سائر النواحي. ولم يتخذ امرأة ولا خلَّف ولداً، ودفن في جبل قاسيون. انظر «البرق الشامي»: ٣/ ١٢٦ ــ ١٢٧، و«سناه»: ١/ ٣٠٥، و«عيون =